

الشهيد في شعر عزالدين المناصرة

كبرى روشنفكر*

خليل پرويني**، علي گنجيان***، أمير فرهنگنيا****

الملخص

إنّ الشهادة اصطفاً واختياراً وتكريم من الله تعالى للمخلصين من عباده، ويعتبر الشهيد والشهادة من أعظم أركان شعر المقاومة، ومن أوسع الأبواب الشعرية التي يدور الشعراء في رحابها. فالشاعر المقاوم عليه أن يصنع مصيره بيده ويكون داعياً إلى التحرر والاستقلال وملتزمًا بقضايا مجتمعه. يعدّ الشاعر الفلسطيني المعاصر عزالدين المناصرة من الشعراء المقاومين و المهتمين بالشهيد والشهادة؛ بحيث كان شديد الإيمان بحرية الاختيار ومسؤولاً أمام مجتمعه الذي ينتمي إليه، مسائراً شعبه وأبناء قومه، مقاوماً للظلم والطغيان، مناصراً ضد الظالم، رافضاً المصالحة مع الواقع الاجتماعي الذي يعيشه شعبه، متغنياً بأجساد شعبه وبسالته وبطولاته و تضحياته، وما تقدّم به الشهداء من إقدام وإحجام وما تسببوا في التأثير على الآخرين. يهدف هذا البحث ضمن المنهج الوصفي - التحليلي إلى دراسة دور الشهيد في شعر المناصرة وقصائده التي تحكي قصة المجاهدين والشهداء وذلك في إطار النقد، كما يهدف إلى إلقاء نظرة عابرة على حياة الشاعر وشخصيته وثقافته، ثم التعرف على أدبه المقاوم ودراسة موضوع الشهيد في جميع مجموعاته

* أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة تربيت مدرس (الكاتبة المسؤولة) kroshan@modares.ac.ir

** أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة تربيت مدرس

*** أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة العلامة الطباطبائي

**** أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة الشهيد بهشتي

تاريخ الوصول: ١٣٩٦/٨/٢٥، تاريخ القبول: ١٣٩٦/١٠/٢٩

الشعرية؛ ومن النتائج التي توصل إليها المقال، تأثر الشاعر بالمنهج الإسلامي، حيث وظف الشخصيات الإسلامية والقرآنية في شعره، دلالة على الدور الرسالي الذي يقوم به الشهيد في حياته وضمن مماته.

الكلمات الرئيسية: الشهيد، المقاومة، فلسطين، عزالدين المناصرة.

١. المقدمة

لا شك أنّ أدب المقاومة أو الأدب المقاوم بنوعيه الشعر والنثر يعدّ نوعاً من التصدي لكل أنواع الاستعمار والاستبداد؛ كما لا يخفى أنّ شعراء المقاومة يعبرون عن مشاعرهم الدفينة الصادقة من حبّ وغضب وحرمان بأجمل وأدق الصور؛ والشاعر المقاوم يجمع بين مصيره ومصير أمته ويتحمل التشرد والغربة والحرمان، إلى أن يجابه أعداء شعبه ولينفضّ عن أمته غبار التخلف والعذاب والتوتر؛ انطلاقاً من هذا، فإنّ الشهيد والشهادة من أبرز وأهم وأوسع المجالات التي تناوله شعراء المقاومة؛ ذلك لأنّ الشهادة مقرونة بالجهاد، ومعلقة به كالرأس من الجسد؛ بحيث لا يذهب دم الشهيد الذي سال في المعركة أو الحرب هدرًا، بل كان له خير جزاء عند الله سبحانه وتعالى، لأنه في سبيل إعلاء كلمة التوحيد والعبودية لله، ثم الفوز برفيع الدرجات ورضوانه عزّ وجلّ؛ إنّ المنزلة العظيمة التي أعدّ الله للشهداء، وبينها ورعّب فيها النبي صلى الله عليه وآله، كان حافزاً ودافعاً قوياً للشعراء المسلمين الذين وجدوا في هذه المنزلة سلاحاً قوياً يجاهدون به الأعداء والمحتلين، وأنشدوا الشعر في حب البطولة والفداء والتضحية والإقدام؛ فالشاعر المقاوم يريد الحرية والاستقلال لشعبه ويرفض الاحتلال ويعتزّ بوطنه ويحزّ إليه ويعبّر عن رفضه للواقع المرير الذي يعانيه الشعب داعياً إلى النضال من أجل العدل والاستقرار. من هذا المنطلق يعتبر الشاعر الفلسطيني المعاصر عزالدين المناصرة، من أولئك المقاومين الذين يُعرف بأعمال البسالة والإقدام؛ ومجدت قصائده بطولات الشهداء وخلدت مواقفهم الرائعة، وهو من الذين تمثّلت معالم المقاومة في شعرهم؛ ويحاول هذا البحث بيان ملامح الشهيد والشهادة في شعره مستعيناً بالمنهج الوصفي - التحليلي.

١.١ خلفية البحث

من أبرز الدراسات التي تناولت موضوع الشهيد والشهادة في الشعر العربي، هي:

١. مقالة مطروحة في المؤتمر العلمي الثاني للغة العربية وآدابها، تحت عنوان «إسلامية الدراسات اللغوية والأدبية وتطبيقاتها»، سنة ٢٠٠٩، في ماليزيا؛ وعنوان المقالة: الشهيد والشهادة في الشعر الإسلامي لكبرى روشنفكر، حيث تعرضت الكاتبة لقضية الشهيد لغةً وأشارت إلى إحصائية تفيد بتكرار مادة شهد حوالي ١٦٠ مرة في القرآن الكريم، وذكرت بأنّ الشهيد من أسماء الله تعالى وله دلالة تختلف عما اصطاح عليه في المجتمع الإسلامي بعد وقوع الحروب؛ كما قامت بدراسة الشهيد والشهادة ضمن نماذج شعرية في العصر الذي شهد الحضرة النبوي؛ وتطرق إلى موضوع الشهيد والشهادة في الآيات والروايات الإسلامية، ومن ثم في الشعر الإسلامي، وبالتالي تناولت الخصائص الفنية لهذا النوع من الشعر.

٢. الشهادة والشهيد في الشعر العربي المعاصر، لأمير مقدم متقي، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، السنة الرابعة عشرة، حيث تعرض المؤلف لقضية الشهادة والشهيد في الأدب العربي، نظراً لأهميتها، وبدأ بالحديث عن الحسان بن ثابت، الشاعر الإسلامي الذي رثي سيد الشهداء حمزة، عمّ النبي الذي استشهد في معركة أحد، ثم قام بالحديث عن أبي تمام، وصوره الشعرية الملحمية الرائعة، تعظيماً وتكريماً لشهداء الحروب، ومن الشعراء الأندلسيين ذكر ابن الجياب وتناول الحديث عن لوحاته الشعرية المليئة بتعظيم الأبطال والشهداء الأندلسيين، ثم قام بتعريف الشهادة والشهيد لغةً واصطلاحاً، وتطرق لموضوع الشهيد عند المعاصرين، كإبراهيم طوقان، وأبي شادي والشاعر القروي؛ وهناك مقالة بعنوان «شهاد و جانباز در شعر إبراهيم طوقان، شاعر المقاومة الفلسطينية» لحسين كياني وسيد فضل الله ميرقادي؛ نشر في مجلة أدب المقاومة، حيث اعتبر المؤلفان طوقان من الشعراء الفلسطينيين المقاومين، وتطرقا لخصائص الشهيد والمعوق «جانباز» في شعره، كالهذوء النفسي والمعنوية، والابتعاد عن الضغوط بشتي أنواعها، والامتلاك لعاطفة صادقة، والاتباع من منهجية حسين بن علي (ع)، وعدم الخوف إلا منه عزّ وجلّ.

كما يمكننا الإشارة إلى كتاب الشهادة والشهيد في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي لعبدالرحمن مرضي، حيث تناول المؤلف في مقدمة الكتاب الشهادة والشهيد في اللغة وفي الاصطلاح، والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ وفي الفصل الأول تطرق إلى الشهيد والشهادة في شعر صدر الإسلام والعصر الأموي، وبواعث الشهادة كرسوخ العقيدة الإسلامية، تحريض قادة جيوش المسلمين، الجهاد في سبيل الله والفوز بالجنة؛ ثم تناول صفات الشهيد كالشجاعة والصبر والإقدام والكرم؛ وفي الفصل الثالث قام بدراسة فنية كبناء القصائد والمقطعات والمعجم الشعري الإسلامي والاقْتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والصورة الشعرية والإيقاع.

جدير بالذكر أن أبرز الدراسات التي تطرقت لتجربة عزالدين المناصرة الشعرية: التناص المعرفي في شعر عزالدين المناصرة، لليديا وعدالله، وبنية القصيدة في شعر عزالدين المناصرة، لفيصل صالح القصبري، والتناص المعرفي في شعر عزالدين المناصرة لصادق عيسى الخضور؛ ومن أبرز المقالات في هذا المجال: «أساطير المقاومة في شعر المناصرة، لفرامز ميزائي، فالمناصرة (على رأي الباحث) يهدف إلى الالتفات إلى الروح الوطنية والبحث عن جذور الوطن الفلسطيني وذلك عبر توظيف الأساطير العربية كامرئ القيس وكنعان والأساطير اليونانية القديمة كأدونيس وحمورس ليرسم أصالة العرب ويقول أن العرب يعترفون من المقاومة والأمل في الأساطير الإغريقية، وتحليلات المكان في شعر عزالدين المناصرة، للباحثة رقية رستم بور، وقناع امرئ القيس في شعر المناصرة للكاتبة نفسها؛ بناءً على هذا، تُعدّ هذه أول دراسة من نوعها تتناول قضية الشهيد والشهادة في شعر المناصرة؛ حيث يقوم المقال بالإجابة عن هذين السؤالين والأعمال الكاملة للمناصرة بجزئها الأول والثاني، هي محلّ دراسة الباحث لموضوع الشهيد:

١. ما هو موقف عزالدين المناصرة من الشهيد والشهادة في دواوينه الشعرية؟

٢. ما هي خصائص الشهداء وروافدهم الفكرية في مجموعات عزالدين المناصرة الشعرية؟

٢. تعاريف

نتنقل الآن إلى الشهيد في الشعر العربي والتعرف على المناصرة ودواوينه وثقافته الشعرية.

١.٢ الشهيد في الشعر العربي

من الألفاظ التي وردت بمعناها الجديد في أشعار شعراء الإسلام، الشهادة والشهيد، فكما تبين سابقاً فإن العرب قبل الإسلام ما عرفوا الشهيد إلا بمعناه اللغوي الذي يدور حول الحضور أو العلم أو الشهادة، أما في الإسلام فإنّ الشهادة أصبحت همّ المجاهد المسلم غايته في حياته الدنيا (مرضوي، ٢٠٠٥: ٢٦٥). إنّ من أهمّ الدوافع التي حثت الشعراء الإسلاميين في أن ينشدوا أشعاراً حول الشهداء والإشادة بطولاتهم وتضحياتهم، هو الدفاع عن العقيدة الإسلامية التي هي ضمانة لوصوله إلى رضوان الله عزّ وجل؛ فنعتبر أهمّ بواعث الشهادة في العصر الإسلامي فيما يلي:

- «الأول العقيدة الإسلامية التي رسخت فيهم حبّ الشهادة،

- الثاني فكان الأثر القيادي المهمّ الذي تبناه قادة جيوش المسلمين في تحريض جنودهم على الفوز بالشهادة،

- الجهاد في سبيل الله تعالى ثالث هذه البواعث وذلك لحب مجاهدي هذا العصر للجهاد، لأنهم وجدوا فيه طريقاً سريعاً يقودهم إلى الجنة» (المصدر نفسه: ٣٥٢).

إنّ الشهيد والشهادة لهما جذور إسلامية ظهرت مع ظهور الدين الإلهي وتزامنت مع موضوعات غير مسبوقه عليها كالجهاد والكفاح والدفاع عن العقيدة والفوز برضوان الله. كما نلاحظ في العصر الإسلامي، حسان بن ثابت، شاعر النبي في قصيدة دالية أولها *أنا الفارس الحامي الذمار يقول:*

ومنا قتيل الشعب أوس بن ثابتٍ شهيداً وأسني الذكر مني المشاهدُ
ومَن جدُّه الأدني أبي وابنُ أمِّه لأُمّ أبي ذاك الشهيدُ المجاهدُ

(حسان بن ثابت، ١٩٩٤: ٧٦)

تتجلى ملامح البطولة والجهاد في هذا المقطع الشعري، والتي أخذها حسان من الدين الإلهي؛ وهي مضامين تجري في خدمة الدعوة الإسلامية، وأصبح فخراً على الشعراء الإسلاميين أن يلتزموا بهذه المبادئ الخالصة النابعة من شريعة الله وأن يدافعوا عن المجاهدين والصابرين وأن يجابهوا أعداءهم؛ إذن وكما لاحظنا في شعر حسان، يقول

الشاعر في رثاء هذا الشهيد: إنه كان مجاهداً كما وصفه بأنه هو قتيل الشعب، وهو الذي فضّل القرح والشدائد لكي يصل برضوان الله تعالى، كما قال عزّ وجلّ: «فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ/ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ» (آل عمران: ١٧٠-١٧١)؛ كأن الشاعر يستشهد بهاتين الآيتين عندما يؤكد على أنه قتيل الشعب، ولكنه فاز بنعمة وفضل من الله ورضوانه، وهكذا كثير الاقتباس من آيات القرآن الكريم عند شعراء صدر الإسلام في مجابهة الأعداء والكفار والخصوم وتحريض المجاهدين على التضحية والفداء والبطولة.

أما في العصر الأموي نرى أبا الصخر الهذلي يرثي ابنه الشهيد قائلاً:

سألتُ مليكي إذْ بلائي بفقده وفأه بأيدي الروم بين المقانِبِ

(السكري، د.ت: ج ٢، ٩٢٣)

كما لاحظنا، يسأل الشاعر المولى عزّ وجلّ أن يشرح صدره ويلهمه الصبر والسلوان على فقد ابنه الشهيد؛ واستخدم أبو صخر أسلوب الدعاء، وهو كان أسلوباً شائعاً عند شعراء صدر الإسلام امتثله الشعراء الأمويون وقلدوها.

لم يكن الشعراء العباسيون بعيدين عن قضية الشهيد والشهادة؛ كما نلاحظ دعبل

الخراعي وهو يعتزّ بالإمام الشهيد حسين بن علي (ع) وتضحياته، حيث يقول:

أفاطمُ لو جَلَّتِ الحسِينُ مُجَدِّلاً وقد مات عطشاناً بشطّ فِراتِ
إذن لَلطِمْتِ الخدَّ فاطمُ عنده وأجرِيتِ دمعَ العينِ في الوجناتِ
أفاطمُ قومي يابنةَ الخيرِ واندبي جومَ سماواتِ بأرضِ فلاةِ
قبورٌ بكوفانَ، وأخري بطيبةِ وأخري بفتحِ نالها صلواتي

(الخراعي، ١٩٧٢: ١٣٥)

رأينا كيف يقول الشاعر لحبيته: إنها إذا عرفتْ حقيقة مأساة الحسين وهو ساقط على الأرض وقتلَ ظمآن قرب فِرات، فهذا المشهد الجنائزي المأساوي الكارثي يجعلها تلطم خدّها وتجري الدمع وتصبها وتتأوه على الإمام وابن الإمام، قتيل العبرات، حفيد النبي الذي

استشهد راضياً بقضاء الله ومرضياً؛ إذن يرثي الشاعر حسين بن علي (ع) وذلك بعاطفة صادقة ومشاعر حزينة تدفع المتلقي على هذه الكارثة العظيمة التي لم يسبق مثلها في التاريخ. وفي الشعر المعاصر على سبيل المثال تناول عمر أبو ريشة في أشعاره موضوع الشهيد والشهادة، له قصيدة بعنوان «شهيد» قالها في الحفلة التذكارية في حماة ودمشق (١٩٣٧م) للشهيد البطل «سعيد العاص» الذي استشهد في جبل النار في فلسطين، إنه يقول:

نام غيب الزمان المساحي	جبل المجد والندي والسماح
أسكرته أجيال نعمته البكر	بفيض الأعراس والأفراح
حين أنفاسه تموج على الكون	بعبق النبوة الفواح
فتهاوت تلك النسور وأزرت	بالمنايا، على اللظي المحتاح
يا دمء النسور تجري سخاءً	بغرامة البطولة الفصاح
يا شهيد الجهاد يا صرخة الهول	إذا الخيل حمحت في الساح
جبل النار لن تنام كما نمت	جريح العلى كسيح الطماح
لك حب في قاسيون وصنين	وسيناء ماله من براح

(أبو ريشة، ٢٠٠٥: ج ١، ٤٠٦-٤١٤)

وسعيد العاص هذا فارس عربي عرفته البيداء، حفظت ذكرياته ولوّحت الشمس بسمره عربية أصيلة وكم شهدته ساحات دمشق وهو يحتال مثقفاً بسلاحه أو يمتطي صهوة جواده، يستحثه على الإقدام، مسرعاً إلى ميادين القتال، واثقاً بالنصر مستحثاً أكاليل الغار تزين جبينه، وما عاد مرةً من معركة إلاّ وجد الصبايا بانتظار عودته مبتهجات له، مزغردات لانتصاره لأنّه كتلة نخوة ومروءة، ما تستنجد به مكروب يوم معركة إلاّ وليّ دعوته بقلبٍ عامر بالايمان» (دندي، ١٩٨٨: ٢١).

إنّ عمر قد أراد أن يوفّي الشهداء حقّهم في التخليد. إنّ الشهداء وإنّ لفظوا أنفاسهم ولكنّ عمر يريد أن يأخذ ثأرهم. فإنّه وصف «سعيداً العاص» بالنسر وإنّه فتى المجد والمناذاة للعرب، ووصف فضله وشأنه في سبيل العزة القومية والاستقلال والتحرير. بل هناك في هذه المرثية صرخة الثأر، لأن لاينجلي غبار بطولات هؤلاء الشعراء وما كان لها من آيات التضحية والفداء والخلود. فكانت هذه المرثية خير وقودٍ للعزيمات والمشاعر والقرائح النازعة

نحو التحرّر. لأنّ روح المقاومة قد جرت في نفوس العرب بواسطة دماء هؤلاء الشهداء، وأخذت تبعث الرعب بين المستعمرين.

إذن وبعد ما تعرضنا لقضية الشهيد في الشعر العربي وإن كان بصورة عابرة وبسيطة، يمكننا تلخيص أهم ظاهرة تتجلي فيما يخص بأشعار الشهداء في الأدب العربي وبمختلف عصوره هو الدعوة إلى استمرارية الحياة بعد الموت للشهيد، باعتبار أن موت الشهيد عني انتهاء مرحلة وبداية مرحلة أخرى؛ فموت الشهيد ليس بمعنى نهاية الحياة أو إيقافه، بل هو الدفع إلى الأمام، وهو الفوز برضوان الله؛ وأنه هو نفسه ثمن ما يدفعه الشهيد من فداء النفس والتضحية في سبيل الوطن والحرية والحياة.

٣. التعريف بالشاعر وثقافته الشعرية

عزالدين المناصرة من مواليد (١١/٤/١٩٤٦)، بمحافظة الخليل الفلسطينية؛ حصل على شهادة «الليسانس» في «اللغة العربية، والعلوم الإسلامية»، عام ١٩٦٨، ودبلوم الدراسات العليا، في النقد والبلاغة، والأدب المقارن، عام ١٩٦٩، في كلية دار العلوم، بجامعة القاهرة؛ ثم أكمل دراساته العليا لاحقاً، وحصل على شهادة التخصص في الأدب البلغاري الحديث، وحصل على «درجة الدكتوراه» في النقد الحديث والأدب المقارن في جامعة صوفيا، ١٩٨١، وكانت أطروحته، تحت عنوان: «شعرية المقاومة في الشعر العالمي الحديث» - باللغة البلغارية، محفوظة في مكتبة كيريل وميتودي، بصوفيا؛ كذلك حصل لاحقاً على الرتبة الأستاذية (بروفيسور) في جامعة فيلادلفيا، بعمّان ٢٠٠٥. عزالدين المناصرة شاعر إشكالي لا تتأتى إشكاليته من تكوينه الأدبي والمعرفي لكونه شاعراً وناقداً وأكاديمياً حسب، بل من طبيعة شعره وكيفيته الفنية، إذ يبدو شعره للوهلة الأولى صلباً وخشناً يخلو من السلاسة اللغوية والمرونة الإيقاعية وجماليات التصوير، لكنه حين تنجح القراءة بصبرها الضروري في الانتماء إلى فضاء هذا الشعر وتقاليدته ورؤاه والانشغال الحميمي بخصوصيته الإشكالية، ستكشف بسهولة ورحابة خطابه وفرادته وسيباده بمتعة لذائذه قبل أن يبادره باحتمالاتها وتأويلاتها (عبيد، ٢٠٠٦: ٦)؛ إذن يمكننا أن نعتبر شعره سهلاً ممتنعاً، تراه سهلاً مع مفردات بسيطة،

ولكنها في الوقت نفسه تحتاج إلى إمعان النظر لفهم محتواها؛ ينشد المناصرة الشعر وكأنه راوي الحدث وبطله؛ يروي أحداث المشهد كأنه جرّب مأساة الوطن والمواطنين بنفسه ورأى بأعينه وأحسّ الفقر والجوع والحرمان وانتهاكات حقوق شعبه بحاسته وشامته، فصوّر المأساة بعاطفة صادقة نابعة عن حب مسقط الرأس والوطن.

لعلّ أهمّ ما يميز الشاعر عزالدين المناصرة عن نظرائه الشعراء الفلسطينيين، هو أنّه عني عناية فائقة بالتواصل مع التراث العربي والفلسطيني بأنواعه المختلفة، فقد ارتبط الشاعر مذ قصائده الأولى في ديوانه «يا عنب الخليل»، عني بتاريخ أمته وتراثها وارتبط به ارتباطاً وجدانياً وفكرياً وثقافياً، واندغم بالتراث الشعبي الفلسطيني، انطلاقاً من قناعاته الفكرية وتوجهاته السياسية، وإيماناً منه بأنّ الاندغام بالتراث الأدبي، هو الطريق المؤدي للاندغام والتوحد مع الأرض والوطن (رزوقة، ٢٠٠٨: ٣٠١).

٤. الشهيد في شعر المناصرة

نتناول في هذا القسم من المقالة أهمّ المضامين المرتبطة بالشهيد في مجموعات عزالدين المناصرة الشعرية، حيث نبدأ الحديث عن الشهيد والوطن أو موقف الشهيد من الوطن عند الشاعر؛ ثمّ نتعرض لموضوع الشهيد والتراث بأنواعه المختلفة كآليات لإبراز أهمّ ما ينويه الشاعر المقاوم بما فيها الديني «القرآني» والأسطوري.

١.٤ الشهيد والوطن

لا يختلف إثنان على وجه الأرض يشكّان في قدسية «الاستشهاد» في سبيل قضية واقعية. إنّ اختيار يتخطى بمعانيه الوجود الحسي ليسمو في أعلى درجات النبيل والإيثار، إنّ أصحابه أناس فضّلوا الشهادة على العيش في ذل وخنوع، واختاروا التضحية سبيلاً لنحيا ونعيش في شرف وعز وكرامة، هم أناس آمنوا بقضيتهم فزادوا حباً للقاء بالنفس في سبيلها. لم تمنعهم صورة «الموت» عن النضال حتى الرمق الأخير، فجهادهم جزء من ثقافة «حياة» أبدية؛ نظراً

لأنّ المناصرة من كبار شعراء المقاومة الفلسطينية، فتابع أخبار الوطن ومعاناة المواطنين، وتعرف على الأبطال والفدائيين والأبسال؛ وتناول قضية الشهيد والشهداء، وتعرض في مجموعاته الشعرية لبطولاتهم وتضحياتهم، ورسم أروع الصور وأجملها فيما بذلوه من جهدهم سعياً إلى الوصول إلى أغراضهم، هذا المقطع من أجمل ما رسمه على لسان واحد من الشهداء الفلسطينيين:

في زمان الندى والسماح/ كنتُ أكثرهم في السماح/ ولما وقعتُ حصانا جريحاً وحيداً
شهِيداً فريداً/ على صخرة في الظلام/ فجأةً ... طوّقتني سكاكينهم ... والسَّهامُ/ وصرْتُ
يتيماً على طاولات اللثام/ هل أميطُ اللثامُ/ عن أكاذيبهم، هل أميطُ اللثامُ !!
(المناصرة، ٢٠٠٥: ج ١، ٨٠).

يرسم الشاعر في هذا المقطع مجال الحلم الذي يستدرج الواقع إلى دراميته بين «الندى» و«السماح» و«الظلام» و«السكاكين» و«السَّهام» و«طاولات اللثام» و«الأكاذيب»؛ ويشكل المجال الحلمي «بؤرة» فنية تفتح فيها حواس اللحظة على ما تفترضه المخيلة، هادفاً من ميلها نحو الغياب إنجاز مسافة تتناثر فيها الأنا الشاعرة المكتسبية بـ «أنا» القارئ؛ فكما نلاحظ في هذا المقطع، استخدم الشاعر تكتيك القناع ليسرد مشهداً مأساوياً وفي النهاية تختزل ذلك الشهيد الشاعر الذي يكتف دلالته بضمير المتكلم للوحدة ويصوّر نفسه بطلاً في ذلك المشهد، كما هو راوٍ لتلك الأحداث؛ فالقناع يستخدم لاعتباره مدّاً لجسور التواصل مع المتلقي، ولا تصل رسالة الشاعر عن طريق المباشرة كما عهده المتلقي، بل من خلال وسيط هو شخصية القناع التي تمثل الموضوع في التجربة القناعية.

ترهبو معاني الحماسة والفخر فوق الألفاظ وتلمع في سطور هذه الأنشودة الجهادية، وتردهر فيها الجراءة والإقدام، ويندفع في معظم مضامينها حب الاستشهاد؛ يصور المناصرة في هذا المقطع نفسه، حيث كان أجود وأسمح وأكثر قومه عطاءً وهبة، حينما ساد زمن الجود والعطاء؛ ولكن الزمن تغير؛ وانقلب الدهر على ظهره، ومع مرور الزمن أصبح شاعراً كحصان جريح وشهيد وفريد واقع على صخرة في ظلام الوحدة والابتعاد عن الآخرين، أو البعد عن مواطنيه، أو الافتراق عمن يفهمه، أو يسايره، أو يشاطره في الأتراح أو ما عاناه، ما كان هناك من يمرضه ويعالجه ويزيل عنه آلام الجروح والقروح والإصابات؛ بغتة أحاطت الشاعر سكاكين الظلم والبخل والحرمان ونكران الجميل، وسهام العقوبة والجزاء، وصار الشاعر يتيم

الأب والأم والصدیق الحنون على طاولات اللّعام الجبارين الظالمين؛ هنا يتساءل المناصرة نفسه، حيث يقول: هل أفشي سرهم وأخبر الآخرين بأقوابيلهم الكاذبة ودفائهم وخفايا وجدانهم وأنهم يظهرون ما لا يطنون؟؛ ثم يكرّر التساؤل لكي يؤكد على ما يطنه وما يخفيه. كما يخاطب الشاعر مقبرة الشعراء ويقول في هذا المقطع:

قولوا لمقبرة الشهداء ... ألا يكفيك!!/ غنّينا أغنيةً جارحةً حارقةً، لم يألّفها محمودُ./ -الآن
نقول لمقبرة الشهداء المختفية في أحراش الداز/ يا مقبرة الشهداء المغمورين الجبارين،
أغيشني/ أ... و... لا، تكفيك أكاليل الغار!!!/ أ... و... لا، لا تكفيك مئات
قراييني!!! (المصدر نفسه: ج ١، ٤٣١).

ليست ظاهرة التكرار غريبة على الشعر العربي قديمه وحديثه؛ حيث نجدّها تمثل في كلّ نص شعري، «تسهم طبيعة الشعر العربي في إحداث التكرار على نحو ملحوظ؛ فبيان الشعر نفسه قائم على نمطية منه، وليست بحور الشعر، والتفاعيل المكوّنة لها، ثم حرف الروي الذي يجب التزامه إلا تكراراً واجب الالتزام، بل إنّ الخروج على نسقها المتكرر يخرج القصيدة من باب الشعر الذي جرث عليه أساليب العرب، ثم إنّ المهاد الذي بُني عليه وزن البيت وموسيقاه، وهو الإيقاع متكرر وجوباً» (عاشور، ٢٠٠٤: ٣٢).

لاحظنا في هذا المقطع تكرار الحروف والفعل كما يلي: «أ... و... لا، تكفيك»، وبعده «أ... و... لا، لا تكفيك»، إنّ الباعث النفسي هو من أهم العوامل التي تسببت في تكرار هذه العبارة المتشكلة من الحروف والفعل المكرر، كما يخاطب الشاعر مقبرة الشعراء، ويقوم بإعادة الأثر الواقع على القلب واستقراره في النفس، وذلك بواسطة التكرار الذي يجعل معنى السياق يقوم في كثير من الأحيان عليها، وبهذا التصور يعدّ عنصراً مركزياً في بناء النص الشعري ولتوسيع دلالاته داخل السياق؛ كما أن نوعية الاستفهام في هذا السياق هي استفهام إنكاري، يزيد في الإخبار عنه بأنّ أكاليل الغار ومئات القرايين لن تكفي مقبرة الشعراء، أو لن تعادل ما بذلوه من قصارى جهد حتى ضحّوا بأرواحهم ولقوا حتفهم؛ فاللافت للنظر هو أنّ تكرار حرف الاستفهام وما تلاه من فعل «يكفيك» يأتي بتفاصيل رؤية الشاعر ويؤكد على فكرة يريد إيصالها إلى القارئ وهو الدفاع عن حرمة الشهداء وحقوقهم.

من زاوية أخرى إنّ تكرار «مقبرة الشهداء» وهو عبارة عنوان القصيدة، يدلّ على وحدة الإحساس والانفعال العاطفي، وأنّ الفكرة الكلية الرئيسة لهذه القصيدة هو الحديث عن مقبرة الشعراء وذلك بأساليب متنوعة بما فيها الأمر: «قولوا لمقبرة الشعراء»، والخبر «نقول لمقبرة الشعراء»، والنداء «يا مقبرة الشعراء»؛ بحيث يوصى إلى تعلق الشاعر بها، ويهدف الشاعر من خلالها إلى الإسهام في تحقيق التواصل بين الأجيال، كي يقرأ القارئ والمواطن والشباب الصفحات المجيدة لرواد عظام تقدموا في الطريق ببسالة وفداية واقتدار، كما تلازم أداؤهم مع النداء «الدعوة إلى الجهاد»، وجادوا بأرواحهم الطاهرة تلبية لنداء الواجب الوطني والقومي المقدس.

كما يحكي المناصرة قصة أسر الضحايا والشهداء في القتال ويقول غنينا أنشودة ترسم حرقه أكبادنا؛ أغنية لم يعهدا أي شخص، فنخاطب مقبرة الشهداء المجهولين في زوايا الدار، هم الشهداء الذين لم يعرف حتى الآن نسبهم وجنودهم الأسرية؛ الذين استشهدوا ولم تعرف مكانتهم؛ يطرح المناصرة السؤال؛ كأته تقدم بمئات القرابين تكريماً لمقبرة الشهداء، ويسأل ألا تكفيك؟ من الممكن أنه يطرح السؤال على سبيل الاستفهام الإنكاري، بمعنى أنه لا تكافأ مجهودات الشهداء بالأكاليل والقرابين وما شابهها؛ بل إنّ ما بذلوه في سبيل تحرير الوطن، من مال ونفس وروح، لا يعادله أفضل ما يكون في الأرض.

يستمرّ المناصرة في رسمه صورة الشهيد والشهادة بأروع الكلمات والجمل، حيث يقول:

يقع البحر الميت بين بركة كنعان، وجبال قلبي التي تصل الأرض بالسماء، / منكسر الروح / مسجى / كشهيدٍ قديم، جرحه أخضر، حين تدفقت الينابيع، هاربةً باتجاه الجبال، / ثمّ عادت، يوم جنازته للقاع، مهدوء الحوريات، حتى لا تنزعج الجنيات، بشياهنّ المزركشة (المناصرة، ٢٠٠٥: ج ١، ٣٣٠).

يذكر المناصرة أمكنة كثيرة في شعره، كما رأينا إنّ تلازم مفردات كالبحر الميت وكنعان وجبال قلبي يشير إلى منتهي علاقته بوطنه وحبّه له؛ يقول الشاعر عن شعريّة الأمكنة: «الأمكنة جزء من عذاباتي الشخصية، فأنا لست من زوار الأمكنة، بل أجبرت على التفاعل معها سلباً وإيجاباً، كما يقول عن السبب الرئيس في هيمنة شعريّة المكان على شعره، أنني

بدأت من ظاهرة «عذابات الفقد والمنع القسري»، ولو كان مسموحاً لي أن أعيش في «مريام الشمالية»، لما كتبتُ عنها أية قصيدة، لأنّ الحياة أجمل من قصيدة؛ لقد فجرت ذاكرة المكان، عندما حرّموني منه، وعندما تنقلت بين أمكنة العالم، عشتُ فيها، وتفاعلت معها مجبراً، لأنني لم أكن من زوار هذه الأمكنة» (عبيدالله، ٢٠٠٦: ١٩٠).

تسببت قضية فلسطين الراححة تحت نير الاحتلال ومن ثم عدم السماح بالشاعر لحضوره مرة أخرى في مسقط رأسه في نشوء الاغتراب كقلق إنساني بسبب ما يعيشه من ظروف متطورة يمر بها شعبه، نتيجة للحروب والصراعات الطويلة في سبيل تحريره؛ كما قد اعتزت الظاهرة «الاغتراب» هذه الآخرين من المفكرين وأدباء القرن العشرين الذين باتوا يعانون من اليأس والقلق.

لكنعان دلالة على الأرض الفلسطيني، فالحديث دائر حول الوطن؛ وحبال قلبه تربط الوطن بالسماء، فلا فصل ولا نسيان للوطن، تعبر الكلمات عن العاطفة الصادقة والشعور الروحي إزاء الوطن؛ قد يشير الشاعر إلى نفسه ويقول إنّه منكسر الروح؛ أي جريحة الروح إثر رؤيته ومساسه بمعاناة الشعب؛ هنا يرسم الشاعر شهيداً قد مرّ عليه الزمن، جرحه أخضر، فيه دلالة إلى أنّ الشهداء لا يؤثر في أبدانهم الدودة والتلاشي والفساد، بل هم الطاهرة أجسادهم إلى يوم يبعثون؛ عندما تفجرت الينابيع، وجاشت نجو الجبال، وعادت يوم تشييع جنازة الشهيد؛ وتتسم عودته بهدوء الحوريات، بثياب مزخرفة؛ «تدل اجتماع اللون الأخضر، والهدوء والزينة الموجودة في الثياب، بأنّ الشهيد ويوم جنازته تشمل أجواء إيجابية؛ قد غلب اقتران اللون الأخضر بالطبيعة الخضراء، وإنّ أهمية هذا اللون تبرز من خلال ارتباطه غالباً بالأمل والتفاؤل والعطاء والجمال والبهجة؛ وهو اللون الوحيد الذي إذا ما طغي على كلّ الألوان الأخرى فإنّ الإنسان لا يحسّ بأي ضيق أو ملل. فاللون الأخضر يفضي إلى دلالات متعددة، فيعني الأمل والاستبشار والجمال، ويعني الحياة والخصب، والبعث والنهضة والتجدد، كما يدلّ على الزمن، وارتبط كثيراً في الدلالة على الشهادة والشهداء، وجاءت ألفاظ الخضرة والفرح سهلة بسيطة، وذلك لأنها تعبر عن ابتهاج النفس» (الزواهرة، ٢٠٠٨: ٤٢).

يعتبر المناصرة الشهيد ذا صوت وروح واهتزاز، حيثما قال:

ذات يوم يجيئك صوتي، وهتّزّ روحي، كما الماء في سفح عيبال،/ يخترق الرمل والريح، ينشر
عطر حبيبي على مدن الحبّ،/ هذي البراكين يوماً تثور، ويصبح هذا الرماد حجر/ إنه
ديمة سمحةٌ سوف تجبر غيلانها أنّ توقع فوق جواز السفر/ ذات يوم يجيئك صوتي، وتعترفين
بأنني تمررتُ من أجل عينيك/ من أجل هذا المطر (المناصرة، ١٩٧٤: ٢٧٠).

إنّ الشهيد الفلسطيني يعلم وطنه وأهله بأنه سيعود ويرفع صوته وتتحرك روحه، ويخترق
الجغرافيا البعيدة، لكي يكون قريباً من وهج النضال، ويخبر بتحوال البراكين إلى ثورة والرماد
إلى حجر يسقط على المحتلّ، في مشهد أسطوري، وكأنّ الرماد مطر ينزل في سكون على
الغيلان/ المحتلّ؛ لقد كان غياب أبطال فلسطين لأجل أنّ يجيأ وطنهم، والمناصرة يستعين
برمزية المطر ليتحدث عن حياة فلسطين، وعندما يتحدث الشهيد بإيجاء المطر، فلكي يذهب
بعيداً بعشقه وتمسكه بالأرض (بوعديلة، ٢٠٠٩: ٣٠٨).

يرى الشاعر أنه من المستحيل تحرير الوطن وشمّ رائحة الحرية والاحتفاظ بالهوية
الفلسطينية إلا بالمقاومة، وليس هناك ختاماً خيراً وإيجابياً للمقاومة، إلا عندما يكون هناك من
يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، من غير أنّ يتوقع ثمناً بخساً من الحياة الدنيا؛ ألا وهو الشهيد
الذي ينظر إلى وجه الله، ويترك كلّ شيء سواه؛ فالشاعر ينحو منحى إنسانياً واجتماعياً
عندما أدرك واقع المجتمع بأحسن الوجوه، وجمع بين بطولات الشهداء والأبسال وبين ألوان
الطبيعة وعناصرها وذلك في عبارات رائعة وجميلة؛ بحيث يصور الشهيد في صورة حية في
فضاء الوطن؛ فعلى الرغم من أنه وراه الثرى، ولكن يتدفق دمه الحارّ في كل شبر من تراب
الوطن ويبعث رسالة البطولة والشجاعة والحيوية.

كان في الرحم يسير/ وعلى درب الحياة/ بعد أنّ ثار على الكهف الصغير/ وارتوى من
لبن الدفلي/ ومن عذب المياه/ أمطرته الحكمة البيضاء أسراب اليمام/ فانحنى يوماً
وصاح/ لحمك المنتور فوق التلة الخضراء/ يرميني ظاه/ يا بعيدا تسير الرمل خطاه
(المناصرة، ٢٠٠١: ٧٠-٧١).

في هذا الصدد، توجه الشاعر إلى قضية الشهيد، واصفاً المشهد بعناصره وتفصيله من
الأشجار والأرصفة وشجرة الزيتون المباركة؛ كما يصف أم الشهيد، ورفاقه من الشهداء

والمسجونين، عندما يقول على لسان الشهيد الفلسطيني:

للأشجار العاشقة أغني/ للأرصفة الصلبة للحب أغني/ للسيدة الحاملة الأسرار الثورية أغني/
تركض عبر الجسر الممنوع علينا،/ تحمل أشواق المنفيين إلى شجر الزيتون، أغني/ لرفاق لي
في القبر أغني/ لرفاق لي في السجن أغني/ لجفرا، سأغني/ جفرا أُمي، إن غابت أُمي/ جفرا،
الوطن المسني/ للعاصفة الحمراء أغني (المناصرة، ٢٠٠٥: ٢٠٩).

«الجفرا لغة واصطلاحاً، هي الفتاة الجميلة في ريعان شبابها، وهي أيضاً الماعز الذي لم يبلغ
حولاً، لكنها تحولت إلى رمز كنعاني، يعني أرض فلسطين في الشعر العربي الحديث، حيث
كتب عن الجفرا، شعراء فلسطينيون وأردنيون وعرب» (المناصرة، ٢٠٠٩: ٣٠)، كما يشكل
الزيتون إحدى مقومات هوية الإنسان الفلسطيني. يرمز هذا النبات باخضرار الدائم إلى
الصمود والمقاومة المستمرة؛ كما «يمتلك الزيتون كثيراً من الرموز، كالصلح والخصب،
والزكاء، والقوة والفوز، والجزاء؛ وقد اتخذها الشاعر الفلسطيني رمزاً للوطن والمقاومة والصلح
(روشنفكر وآخرون، ١٣٩٠: ٥١)؛ فالزيتون شجرة مباركة أقسم بها الله سبحانه وتعالى في
القرآن الكريم؛ وورد ذكره سبع مرات في المصحف الشريف إشارة إلى قيمتها ومكانتها؛ و«يجسد
الزيتون في الأديان السماوية الثلاثة رمزا للحكمة والخصوبة والسلام» (حسونة، ٢٠٠٧: ٢٣).

يحتل حبّ الوطن والتواصل معه مكانة عظيمة في شعر المناصرة كغيره من الشعراء
المقاومين؛ وهنا يوحي هذا الاقتران والتلازم بين المفردات كالزيتون والأشجار العاشقة والأرصفة
الصلبة والسيدة الحاملة لأسرار الثورة والمنفيين والرفاق الشهداء والمسجونين بأن المناصرة لم
يترك أي شيء موجود في هذه اللقطة الدرامية التي يصورها؛ بحيث أنه جعلت الأشجار
عاشقة، لعلها تعشق التضحية والفداء، أو تعشق البقاء في هذا المشهد الدرامي، كما لاحظ
الأرصفة، وهي صلبة صامدة تقاوم مشي المازين والمتشردين والمنفيين وكل موجود يمشي عليها،
أما اللافت للنظر في هذا المشهد، هو السيدة الحاملة للأسرار، قد يقصد الشاعر أم الشهيد
التي تحمل أسرار الثورة، وهي تركض عبر الجسر الممنوع، وهذا يدلّ على أن المرأة الفلسطينية لها
دور فاعل ونشيط في شعر المناصرة، بحيث لم يقل الشاعر: السيدة تمشي أو تمرّ، بل قال:
تركض، والركض هو الدال على الحركية والفاعلية للمرأة المتوافرة في المشهد، وهي تحمل في

صدرها أشواق المنفيين والبعيدون عن الوطن إلى رمز الصمود والبقاء والمقاومة؛ هكذا ولما سبق ذكره، يغني المناصرة ويستمر بالقول ويغني للأطراف الأساسيين في هذا المشهد وهم الشهداء أولاً، ثم يتلوهم السجناء، ويختم القول بأنه يغني للعاصفة الحمراء وهي رمز للانتفاضة أو القوة الصارمة التي تدمر المحتلين وتدفعهم إلى الدرك الأسفل من النار؛ هذا من جهة ومن جهة أخرى نشاهد توظيف الشاعر اللون كوسيلة للتعبير عن القضية؛ وقد اتخذت «قيمة الصورة بمدى أدائها لدورها البنائي عندما يصبح اللون ذا أهمية تفرضه عضويته في تشكيل الظاهرة الفنية وهذه الصفة اللونية لدى الشاعر المعاصر تكتسب جزءاً لا يستهان به من سياقها؛ ويمتد اللون الصورة «متعة عقلية» يرتبط إدراكها بقدرة الشاعر المعاصر على كيفية تشكيلها من حيث الكشف عن شعوره في حالات التوتر وهنا يصبح اللون لبنة بنائية في جسد القصيدة المعاصرة وبناءً فنياً جديداً؛ وهذا البناء الفني الذي تعدد الصورة وهو الذي يبرز الطبيعة الدرامية في القصيدة المعاصرة بأبعاده النفسية والشعورية والفكرية» (عشري زايد، ١٩٧٨: ٢٠)؛ لعلّ تجربة السجن الذي يعيشها الفلسطينيون تُعدّ من أفسى التجارب البشرية المعاصرة لما تتركه من أبعاد نفسية وإنسانية (بلالوي، ١٤٣٧: ٢). إضافة على هذا فاللون الأحمر دائماً يرتبط لدى الشاعر المعاصر بكلّ صفات الظاهرة النارية ولئن كانت النار بالغة التضليل وبالغة الغموض معاً، إلا أنّها ذات دلالة نفسية ترتبط بالذات بما لها من امتياز، كما أنّ هذا اللون يتحول عند المناصرة إلى الطابع التأملي أو الحكمي في هذا المقطع؛ فالصاعقة الحمراء تلازم النار في وجه الاحتلال. إنّ القارئ لهذه الأبيات يعايش تجربة شعرية متميزة وأصيلة للشاعر الفلسطيني الذي لا ينسى الوطن كما لا ينسى رفاقه الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الحرية، والسجناء الذين فضّلوا تحرير الوطن واحتمال المشاق والحرمان على نعماء الحياة والرفاهية.

كما نراه يعرف نفسه متحدثاً على لسان الشهيد، حيث يقول:

أنا عزالدين المناصرة/ سليل الكنعانيين/ قبطان سفن الزجاج المحملة بالحروف/ أنا الذي
زرعت القنبلة/ جفرا التي ماتت عند شاطئ عكا/ هي أختي/ وهم يتبرعون - والحق يقال
- بالملائين/ لكي تستمرّ الثورة/ دمي هو الراكض كالشلال/ في جروح الأرض/ ولا
أشكو/ فالشكوى لغير بني نعيم مذلة (المناصرة، ٢٠٠٥: ٣٥٦).

وقد وظف الشاعر الجفرا، «لم تعرف الجفرا كنوع من الغناء الشعبي في الأردن ولبنان وسوريا «أرض كنعان» قبل عام ١٩٤٨، ودليلنا على ذلك، هو عدم ورودها في الدراسات والبحوث التي تناولت الأدبين الشعبيين اللبناني والسوري، قبل عام ١٩٤٨، في حين ذكرت نصوص منها في وقت متأخر من مصادر أردنية؛ والنصوص المذكورة نصوص منسوجة على منوال جفرا الأصلية، وقد ساعد على وصولها بالذات، الوجود الفلسطيني السكاني في الأردن بعد نكبة ١٩٤٨، مما يؤكد أن أغنية جفرا، عرفت ونشأت في وقت ليس ببعيد، لأن انتشارها يحتاج إلى وقت طويل» (المناصرة، ٢٠٠٩: ٣٥-٣٦).

يحاشر الشاعر الواقع بكل أشكاله السياسية والاجتماعية والفكرية، وتشغله قضية الإنسان العربي المقهور أو المسجون والمحاصر الذي لا حيلة له إلا بالثورة واستمرارها، وذلك بواسطة نزيه الدم الذي يتسم في الشدة والسيلان كالشلال؛ تنظر المناصرة إلى مأساة الإنسان الفلسطيني من منظور فكري؛ وبناء على هذا يصور الشهيد المأساوي الفلسطيني في حالة وكأنه هو البطل الشهيد الذي يضمّد جروح أرض الوطن ويعالجه؛ كما نلاحظ إن تشبيه الدم الجاري بالشلال أعطى صورة جمالية رائعة وجعلتها متميزة، كأن دمه يزيل ما يكون في طريقه ويمهد الطريق لنجاح الثورة؛ كما أن هذه العبارات توحى بأن دم الشهيد ضمان لإيجاد الأمل والثقة والتفاؤل عند أسر الشهداء والضحايا والأحرين؛ كما أنه يذكر من سمات الشهداء وميزاتهم، وهو الرضا والابتعاد عن الشكوى، قنراه يقول على لسان المقاتل الذي بذل قصاري جهده في سبيل الحرية: «لا أشكو»، فكأنه تيقن بأن أجره على الله، ولم ينسب بنت شفة، وذلك لأن الشكوي وصمة عار ومذلة؛ إذن تأخذ صورة الدم «دم الشهيد» في هذه القطعة بعداً إنسانياً عميقاً وتتجول إلى هاجس رئيس للشاعر وهو الثورة.

٢.٤ الشهيد والتراث

يعكس استدعاء التراث، في الأعمال الشعرية، مدي القدرات الفنية والإبداعية للشاعر أو صاحب العمل الأدبي؛ «ليس الشاعر المعاصر من يعبر عن عصره وحسب، بل هو الشاعر الأصل الذي يستمد من الماضي ما يمنح حاضره خلوداً كخلود الماضي، وما يمنحه النظرة

الصائبة لاستشراف المستقبل والتحرك صوبه» (حداد، ١٩٨٦: ٢٩)؛ وعزالدين المناصرة واحد من الشعراء العرب الذين يضربون بجذورهم الفكرية والوجدانية والفنية في أرض تراث شديد الغني والخصوبة؛ ويمتاحون من ينابيع هذا التراث وكنوزه السخية ما يغنون به تجارهم ورؤاهم المعاصرة من وسائل وأطر فنية، متوسلين إلى وجدانيات جماهيرهم بمعطيات التراث من قداسة في نفوس هذه الجماهير ولصوق بوجدانيتهم، مستغلين كل ما اكتسبته هذه المعطيات على مرّ العصور من طاقات إيجابية وما ارتبط بها من دلالات نفسية وفكرية ووجدانية (عشري زايد، ١٩٩٩: ٤٣).

نهدف من وراء العنوان «الشهيد والتراث» إلى دراسة قضية الشهيد من خلال استدعاء الشاعر للتراث الديني؛ وذلك عندما يستلهم الشاعر في هذا المقطع من قوله تعالى، عندما يقول:

في هذا الصباح المبكر جداً، / زرتُ الأموات الأحياء/ الجبل الأزرق، / كبحيرة السماء
الرمادية الخضراء/ الأزرة عالية، جذرها في الأغوار/ بدأ البحر يصحو، / كعروس في
الصُّبحية الأولى، / غازلتُ الحبق المتناثر في مقبرة الشهداء/ اتعظتُ قليلاً بالذين ذاقوا
التجربة، قبلي (المناصرة، ٢٠٠٥: ج ١، ٢٩٠-٢٩١).

فليس المقصود بالتشكيل اللوني ذاك التكوّن المرتكز على اللون فقط، بل يستغرق في مساحاته ألواناً أخرى تنفصل عن لون التضاد وتتصل به كـ«عالية»، و«الأغوار»، و«الجبل»، و«السماء»، وتلتف هذه البنائية على بنائية ثانية تتعادل معها تقابلياً، وتختزلها أيضاً كونها النقاط التي يتشكل منها التوتر، وترمز هذه البنائية بـ «الأموات/ الأحياء»، ووقوعهما بجانب «الصباح المبكر جداً» إلى نوعية توظيف الموروث الديني بجمالية لا يمكن التغافل عنها، كما تتناوب إيقاعات المدّ والجزر في هذا المقطع بمفردات كـ «عروس/ الصبحية الأولى/ غازلت/ اتعظت».

ويستمر الشاعر في استلهم روح الحدث من القصص القرآني، حيث نجد تطوراً في دلالة الأثر من بعده المباشر إلى البعد الإيحائي، فقد أصبح الحدث - في القصة القرآنية - رمزاً له إيجاباته ودلالته الشعرية في النص الشعري» (أبوشاور، د.ت: ٣٣)؛ بناء على هذا نلاحظ في هذا المقطع الشعري للمناصرة، أنه يوحي الصباح المبكر إلى زمن ملء بالمعنوية والروحانية؛ زار الأموات الأحياء، وهم الشهداء دون أدنى شك، واستلهم الشاعر من قوله عزّ وجلّ: «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون» (البقرة: ١٥٤)؛ أما

الجلب الأزرق، فاللون الأزرق من الألوان الباردة، وهو لون السماء والبحر والتفاؤل، إنه لون الامتداد الذي لا نهاية له، لكنه يعطي للون قيمة رمزية، فجاء كل لون يحمل إشارة رمزية دالة على صورة ذهنية معادلة للواقع، الذي يمثل مادة لونية ثرية تقوم برسم صورة عالمه الشعري الغني بألوان الحياة؛ يختم الشعر قوله بهذه العبارة: «انعظت قليلاً بالذين ذاقوا التجربة، قبلي»، فالتجربة هي تجربة مريّة وصعبة، وفي نفس الوقت حلوة، يفهمها من ذاقها وجرّبها.

٥. النتائج

١. تنفتح تجربة الشاعر عزالدين المناصرة على فضاءات رحبة، ويتوزع خطابه الشعري بين قضايا الوطن والعروبة وتحليلات العشق والتضحية والبطولة والفداء، وكما لاحظنا في هذا المقال ينسج الشاعر تفاصيل عالمه الشعري من خلال كلمات موحية وعبارات رامية إلى أغوار تجربته الشعرية؛ وفيما يتعلق بقضية الشهيد والشهادة، رأينا شعره مليئاً بالدلالات والإيحاءات، كما رسم المناصرة كفنّان أو رسام أجمل صور الفداء والتضحية للشهداء، ونظراً لأنه من أشهر شعراء المقاومة الفلسطينية، فتناوله لقضية الشهيد والشهادة يتسبب في إثارة حمية الآخرين للأخذ بثأر الشهداء والمصابين والجرحى من العدو الصهيوني الغاصب المحتل.

٢. يشير اتكاء المناصرة على الموروث الديني والتعامل مع الموروثات الحضارية وذلك بغرض إيجاد التواصل مع جذورنا وأرضنا وتاريخنا؛ من الممكن اعتبار عزالدين المناصرة من الشعراء المهتمين بالشهيد والشهادة، نظراً لأنه ابن القضية الفلسطينية، وتجرّع آلام الهزيمة والحرب والنهب والخراب، بحيث لم يكن شاعراً يعيش أجواء إيجابية عالية بعيداً عن هموم الشعب الفلسطيني وآلامهم، ولم يكن شاعراً ينظر إلى الشعب وهو يعيش في الأبراج العاجية، بل عاش معاناة الشعب، وأدرك بالمعنى الكامل للكلمة معاني البطولة واليسالة والشهادة.

٣. يعتبر الشهيد عند المناصرة رمزاً من رموز الكفاح والمقاومة، فبواسطة التذكير بأجساد الشهداء وبطولاتهم، يثير الشاعر الأمل والتفاؤل والبهجة في قلوب المقاتلين؛ فالشهيد عنده هو الطاقة الخفية التي تجعل للشعب الخلود والمجد، وتظله بسحائب الخير والرحمة والرخاء، وهو الذي يرفع راية الجهاد والعزّ والشرف والفخر والكرامة مكافحاً.

الهامش

١. نبات عطر.

المصادر

القرآن الكريم.

- ابن فارس (١٩٩٤م). معجم مقاييس اللغة، ط ١، بيروت: دار الفكر العربي للطباعة والنشر.
- أبو ريشة، عمر (٢٠٠٥م). الأعمال الشعرية الكاملة، المجلدان، ط ١، بيروت: دار العودة.
- أبو شاور، سعدي (د.ت). تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، ط ١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- بلاوي، رسول (١٤٣٧م). «صورة السجين الفلسطيني في ديوان «وردة على جبين القدس» لهارون هاشم الرشيد»، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، السنة التاسعة عشرة، العدد الثاني.
- بوعديلة، وليد (٢٠٠٩م). شعرية الكنعنة، ط ١، الأردن: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
- الجالوس، محمد (٢٠٠٨م). المؤقت الأبدى وآخر الناجحين، ضمن كتاب عزالدين المناصرة شاعر المكان الفلسطيني الأول، إعداد وتقديم يوسف رزوقة، ط ١، الأردن: دار مجدلاوي للنشر.
- حداد، علي (١٩٨٦م). أثر التراث في الشعر العراقي الحديث، ط ١، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- حسان بن ثابت (١٩٩٤م). ديوان، شرحه وقدم له عبدالله مهنا، ط ٢، بيروت: دار الكتب العلمية.
- حسني، حداد (١٩٩٥م). أناشيد البعل «قراءة جديدة للأساطير الأوغاريتية»، ترجمة وتقديم سليم مجاعص، ط ١، بيروت: أمواج للنشر والتوزيع.
- حسونية، فكتوريا (٢٠٠٧م). زيت الزيتون البكر، ط ١، ألمانيا: مكتب إقليم بفاريا.
- دعبل الخزاعي (١٩٧٢م). ديوان، ط ٢، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- دندي، محمد اسماعيل (١٩٨٨م). عمر أبوريشة، الطبعة الأولى، دمشق: دار المعرفة.
- رزوقة، يوسف موسي (٢٠٠٨م). مقارنة أسلوبية لديوان «جفرا»، ضمن كتاب عزالدين المناصرة شاعر المكان الفلسطيني الأول، ط ١، الأردن: دار مجدلاوي للنشر.
- روشنفكر، كبرى، حسين علي قبادي، و مرتضي زارع برمي (١٣٩٠ هـ.ش). «گستردی عناصر نماد و اسطوره در اشعار سمیع القاسم و حسن حسینی»، فصلنامه جستارهای زیبانی، دوره ٢، ع ٢.
- الزواهره، محمد هزاع (٢٠٠٨م). ظاهرة اللون ودلالاته في الشعر، ط ١، الأردن: دار الحامد.

السكري، أبو سعيد (د.ت). شرح أشعار الهدليين، حققه عبدالستار أحمد فزّاح، ٣ أجزاء، د.ط، القاهرة: مكتبة دار العروبة.

عاشور، فهد (٢٠٠٤م). التكرار في شعر محمود درويش، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

عبيد، محمد صابر (٢٠٠٦م). حركية التعبير الشعري، ط ١، عمان: دار مجدلاوي.

عبيدالله، محمد (٢٠٠٦م). شعرية الجدور، قراءات في شعر عزالدين المناصرة، ط ١، عمان: دار مجدلاوي.

عشري زايد، علي (١٩٩٩م). امرئ القيس الكنعاني، إعداد عبدالله رضوان، ط ١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

القاسم، سميح (١٩٨٧م). ديوان، د.ط، بيروت: دار العودة.

القصيري، فيصل (٢٠٠٥م). بنية القصيدة في شعر المناصرة، الأردن: دار مجدلاوي.

القضاة، عبد الحميد (٢٠٠٤م). الميكروبات وكرامات الشهيد والشهداء، ط ٢، الأردن: دائرة المكتبة الوطنية.

مرضي، عبدالرحمن (٢٠٠٥م). الشهادة والشهيد في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي، ط ١، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.

مطلوب، أحمد (١٩٨٧م). الشعر في زمن الحرب، ط ١، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

المناصرة، عزالدين (٢٠٠١م). الأعمال الشعرية، ط ٥، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

المناصرة، عزالدين (٢٠٠٦م). الأعمال الشعرية، المجلدان، ط ١، الأردن: دار مجدلاوي.

المناصرة، عزالدين (٢٠٠٩م). الجفرا، المحاورات وشعرية العنب الخليلي، ط ١، الأردن: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع.

وعد الله، ليديا (٢٠٠٤م). التناص المعرفي في شعر عزالدين المناصرة، ط ١، الأردن: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.